ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾

ونحن نسمع كلمة « ثقافة » ، وكلمة « ثقاف » ، والثقافة هى يسر التعلم ، أو أن تلم بطرف من الأشياء المتعددة ، وبذلك يصبح فلان مثقفاً أى لديه كمٌ من المعلومات ، ويعرف بعض الشىء عن كل شىء ، ثم يتخصص فى فرع من فروع المعرفة فيعرف كل شىء عن شىء واحد .

كل هذه المعانى مأخوذة من الأمور المحسة ، والتثقيف عند العرب هو تقويم الغصن ، فقد كان العرب يأخذون أغصان الشجر ليجعلوها رماحاً وعصياً ، والغصن قد يكون معوجاً أو به نتوء ، فكان العربى يثقفه، أى يزيل زوائده واعوجاجه ، ثم يأتى بالثقاف وهو قطعة من الحديد المعقوف ليقوِّم بها المعوج من الأغصان كما يفعل عامل التسليح بحديد البناء .

كأن المُثَقِّف هو الذى يعدل من شىء معوج فى الكون ، فهو يعرف هذه وتلك ، وأصبح ذا تقويم سليم . وهكذا نجد أن معانى اللغة وألفاظها مشتقة من المحسات التى أمامنا . وقوله: « ثقفتموهم » أى «وجدتموهم » ، فثقف الشىء أى وجده .

والحق يقول :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم ﴾(من الآية ٥٧ سورة الأنفال)

أى« شردهم حيث تجدهم . ويقول الحق : «واقتلوهم حيث ثقفتموهم» أى لا تقولوا إنهم أخرجوكم من هنا، وإنما أخرجوهم من حيث أخرجوكم، أى من أى مكان أنتم فيه، وعند ذلك لن تكونوا معتدين . وقوله تعالى : «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» يذكرنا بمنطق مشابه فى آية أخرى منها قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (٤٠) ﴾ [الشورى]

وعندما نبحث فى ثنايا هذه النصوص «وجزاء سيئة سيئة مثلها «قد يرد هذا الخاطر» أخذت حقى من أساء إلى، وانتقمت منه بعمل يماثل العمل الذى فعله معى، هل يقال : إننى فعلت سيئة؟

وحتى نفهم المسألة نقول : الحق سبحانه وتعالى يأتى فى بعض الأحايين بلفظ «المشاكلة» وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحته، ومثل ذلك قوله «ومكروا ومكر الله»، إن الله لا يمكر، وإنما اللفظ جاء للمشاكلة . أو أن اللفظ الكريم قد جاء فى استيفاء حقك بكلمة «سيئة مثلها» لينبهك إلى أن استيفاء حقك بمثل ما صنع بك يعتبر سيئة إذا ما وازناه بالصفح والعفو عن المسىء، يشير إلى ذلك سبحانه فى نهاية هذه الآية بقوله : «فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين» وبمثل ذلك كان ختام الآية السابقة «ولئن صبرتهم لهو خير للصابرين» .

ويقول الحق : «والفتنة أشد من القتل» . والفتنة مأخوذة من الأمر الحسى، فصائغ الذهب يأخذ قطعة الذهب فيضعها فى النار فتنصهر، فإذا ما كان يشوبها معدن غريب عن الذهب فهو يخرج ويبقى الذهب خالصا، فكأن الفتنة ابتلاء واختبار، وقد فعل المشركون ما هو أسوأ من القتل، فقد حاولوا من قبل ان يفتنوا المؤمنين فى دينهم بالتعذيب، فخرج المؤمنون فراراً بدينهم .

والحق يأمر المسلمين فى قتالهم مع أهل الشرك أن يراعوا حرمة البيت الحرام ، فلا ينتهكوها بالقتال إلا إذا قاتلهم أهل الشرك .

وهكذا نجد أن أول أمر بالقتال إنما جاء لصد العدوان ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسقط من أيدى خصوم الإسلام ورقة قد يلعبون بها مع المسلمين ، فهم يعلمون أن المؤمنين بالإسلام سيحترمون الأشهر الحرم ويحترمون المكان الحرام ويحترمون الإحرام فلا يقاتلون ؛ وربما أغرى ذلك خصوم الإسلام ألا يقاتلوا المسلمين إلا فى الأشهر الحرم ، ويظنون أن المسلمين قد يتهيبون أن يقاتلوهم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يشرع لهم ما يناسب مثل هذا الأمر فأذن لهم فى القتال ، فإن قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام ، وإن قاتلوكم فى المكان الحرام فقاتلوهم فى المكان الحرام ، وإن قاتلوكم وأنتم حُرم فقاتلوهم ؛ لأن الحرمات قصاص .

إذن أسقط الحق الورقة من أيدى الكافرين . إن الحق سبحانه وتعالى يعلل ذلك بأنه وإن كان القتال فى الشهر الحرام وفى المكان الحرام وفى حال الإحرام صعباً وشديداً، فالفتنة فى دين الله أشد من القتل ، لأن الفتنة إنما جاءت لتُفسد على الناس دينهم ، صحيح أنها لا تعوق الناس عن أن يتدينوا ، ولكنها تفتن الذين تدينوا، وقد حاولوا إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب حتى يرتدوا عن الدين ، وكان ذلك أشد من القتل لأنها فتنة فى الدين .

إن الله هو الذى شرع الشهر الحرام، فكيف يُفتن المؤمنون عن دين الله ويُحملون على الشرك به ثم تقولون بعد ذلك إننا فى الشهر الحرام ؟ إن الشهر الحرام لم يكن حراماً إلا لأن الله هو الذى حرمه ، فالفتنة فى الله شرك وهو أشد من أن نقاتل فى الشهر الحرام ، ولذلك فلا داعى أن يتحرج أحد من القتال فى الشهر الحرام عندما يفتن فى دينه . وحينئذ نعلم أن القتال إنما جاء دفاعاً .

وبعد ذلك هل يظل القتال دفاعاً كما يريد خصوم الإسلام أن يجعلوه دفاعاً عمّن آمن فقط ؟ أو كما يريد الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام أنه دين قتال

ويقولون : لا ، الإسلام إنما جاء بقتال الدفاع فقط . نقول لهؤلاء : قتال الدفاع عَمَّن ؟ هل دفاع عَمَّن آمن فقط ؟ أم عن مطلق إنسان نريد أن ندفع عنه ما يؤثر فى اختيار دينه ؟

هو دفاع أيضاً ، وسنسميه دفاعاً ، ولكنه دفاع عَمَّن آمن ، ندفع عنه مَنْ يعتدى عليه ، وأيضاً عَمَّنْ لم يؤمن ندفع عنه مَنْ يؤثر عليه فى اختيار دينه لنحمى له اختياره ، لا لنحمله على الدين ، ولكن لنجعله حراً فى الاختيار ؛ فالقوى التى تفرض على الناس ديناً نزيحها من الطريق ، ونعلن دعوة الإسلام ، فمَنْ وقف أمام هذه الدعوة نحاربه ؛ لأنه يفسد على الناس اختيار دينهم ، وفى هذا أيضاً دفاع .

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » لأنكم أحرى وأجدر أن تحترموا تحريم الله للمسجد الحرام ، لكن إذا هم اجترأوا على القتال فى المسجد الحرام فقد أباح سبحانه لكم أيها المسلمون أن تقاتلوهم عند المسجد الحرام ما داموا قد قاتلوكم فيه . « فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » . وما أسمى هذا الدين .

إننا لا نؤاخذهم بعد أن انتهوا إلى الإيمان بما قدمت أيديهم من الاجتراء على أهل الإيمان ما داموا قد آمنوا ، ولذلك نرى عمر بن الخطاب وقد مر على قاتل أخيه زيد بن الخطاب : وأشار رجل وقال : هذا قاتل زيد . فقال عمر : وماذا أصنع به وقد أسلم ؟ لقد عصم الإسلام دمه .

لقد انتهت المسألة بإسلامه ، فالإيمان بالله أعز على المؤمن من دمه ومن نفسه ، وحين يؤمن فقد انتهت الخصومة . وهذا وحشى قاتل حمزة ، يقابله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ما يصنعه رسول الله هو أن يزوى وجهه عنه ، لكنه لا يقتله ولا يثأر منه . وهند زوجة أبى سفيان التى أكلت كبد حمزة ، أسلمت وانتهت فعلتها بإسلامها . إذن ، فالإسلام ليس دين حقد ولا ثأر ولا تصفية حسابات ، فإذا كان الدم يغلى فى مواجهة الكفر ، فإن إيمان الكافر بالإسلام يعطيه السلامة ، هذا هو الدين .

﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾

أى مادموا قد كفوا عما يصنعون من الفتنة بالدعوة والشرك بالله وَزُجِروا بالدين الآمر فانزجروا عن الكفر، بعدها لا شيء لنا عندهم؛ لأن الله غفور رحيم، فلا يصح أن يشيع فى نفوسنا الحقد على ما فعلوه بنا قديما، بل نحتسب ذلك عند الله ، ومادامو قد آمنوا فذلك يكفينا. والحق سبحانه وتعالى بعد أن أعطانا مراحل القتال ودوافعه قال:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وعرفنا أن الفتنة ابتلاء واختبار والحق يقول:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

إن الحق يختبر الإيمان بالفتنة، ويرى الذين يُعلنون الإيمان هل يصبرون على ما فيه من ابتلاءآت أم لا ؟ فلو كان دخول الإسلام لا يترتب عليه دخول فى حرب أو قتال ولا يترتب عليه استشهاد بعض المؤمنين لكان الأمر مغريا لكثير من الناس بالدخول فى الإسلام ، لكن الله جعل لهم الفتنة فى أن يُهزَموا ويُقتل منهم عدد من الشهداء ، وذلك حتى لا يدخل الدين إلا الصفوة التى تحمل كرامة الدعوة ، وتتولى حماية الأرض من الفساد ، فلابد أن يكون المؤمنين هم خلاصة الناس.

لذلك قال سبحانه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ». معنى أن يكون الدين لله ، أى تخرجوهم من ديانة أنفسهم أو من الديانات التى فرضها الضغيان عليهم ، وعندما نأخذهم من ديانات الطغيان ، ومن الديانات التى زينها الناس إلى ديانات الخالق فهذه مسألة حسنة بالنسبة لهم ، وتلك مهمة سامية . كأنك بهذه

المهمة السامية تريد أن ترشد العقل الإنسانى وتصرفه وتمنعه من أن يَدينَ لمساو له؛ إلى أن يدين لمن خلقه. وعلى صاحب مثل هذا العقل أن يشكر من يوجهه إلى هذا الصواب. ولذلك يُجلى الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة فيقول على لسان الرسول:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾
[الفرقان]

فكأننا لو نظرنا إلى عمل الرسول بالنسبة إلينا بمنظار الاقتصاد لو جب أن يكون له أجر، لأنه يقدم المنفعة لنا، وبرغم ما قدمه من منفعة فهو لا يأخذ أجراً؛ لأنه زاهد فى الأجر فإنه يعلم أن الأجر من المساوى له قليل مهما عظم وهو يريد الأجر ممن خلقه، وهذا طمع فى الأعلى؛ لأنه لا يعطى الأجر على الإيمان إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الذى يعطى بلا حدود.

ويختتم الحق هذه الآية الكريمة بقوله: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» أى أنهم إذا انتهوا إى عدم قتلاكم، فأنتم لن تعتدوا عليهم، بل ستردون عدوان الظالم منهم. والظالم حين يعتدى يظن أنه لن يقدر عليه أحد، والحق يطلب منا أن نقول له: بل نقدر عليك، ونعتدى عليك بمثل ما اعتديت علينا ويعطينا الحق حيثية ذلك فيقول:

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾

والمقصود هو أنه إذا ما قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام، فإذا ما اعتدوا على حرمة زمان فالقصاص يكون فى زمان مثله ، وإن اعتدوا فى حرمة مكان يكن القصاص بحرمة مكان مثله، وإذا كان الاعتداء بحرمة إحرام ، يكون الرد بحرمة إحرام مثله ؛ لأن القصاص هو أن تأخذ للمظلوم مثل ما فعل الظالم .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخفف وقع الأمر على المؤمنين الذين رُدوا عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وأعادهم المشركون إلى المدينة ، فاقتص الله منهم بأن أعادهم فى ذى القعدة فى العام القابل فى السنة السابعة من الهجرة ، فإن كانوا قد مُنعوا فى الشهر الحرام فقد أراد الله أن يعودوا لزيارة البيت فى الشهر الحرام فى الزمان نفسه .

وقوله الحق : « والحرمات قصاص » يقتضى منا أن نسأل : كيف يكون ذلك ؟ وما هو الشىء الحرام ؟ إن الشىء الحرام هو ما يُحظر هتكه ، والشىء الحلال هو المُطلق والمأذون فيه . فهل يعنى ذلك أن الذى يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل ؟

هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له نقتص منك بالزنى فيك ؟ لا. إن القصاص فى الحرمات لا يكون إلا فى المأذون به وكذلك إذا سرق منى إنسان مالاً وليس لدىَّ بينة ، لكنى مقتنع بأنه هو الذى سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه ؟ لا ، إن القصاص إنما يكون فى الأمر المعروف الواضح ، أما الأمر المختفى فلا يمكن أن نقتص منه بمثل ما فعل .

لكن هب أن أحد الأقارب ممَّنْ تجب نفقتهم عليك وامتنعت أنت عن النفقة على هذا الإنسان ، وهذا أمر محرم عليك ، ومادام الأمر علنياً، فله أن يأخذ من مالك فيأكل وتكون المسألة قصاصاً . وهب أن زوجتك تشتكى من بخلك وتقصيرك ، كما

اشتكت هند زوجة أبى سفيان لرسول الله ﷺ من بخل زوجها فقال لها: خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدك.

ومثال آخر، هب أن ضيفا بمنزلك ورفضت أن تكرمه، وانتهز فرصة بعدك عن المكان الذى يجلس فيه ثم تناول شيئا وأكله. لا يكون تعديا عليك مالم يكن داخلا فى محرم آخر، وبعد ذلك يترك الحق لولى الأمر تنظيم هذه الأمور حتى لا تصير المسائل إلى الفوضى.

وقوله الحق: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» يدعونا إلى اليقظة حتى لا يخدعنا أحد ويدعى الإيمان وهو يريد الانتقام. ويجب أن نتمثل قول الشاعر.

إن عـادت الـعقـرب عـدنـا لهـا

وكـانـت الـنـعـل لهـا حـاضـرة

ويختتم الحق الآية الكريمة بقوله: «واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» أى لا تظنوا أن الله ملككُم فيهم شيئاً، بل أنتم وهم مملوكون جميعا لله. ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال، ومعناها: أعدوا انفسكم للقتال فى سبيل الله.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة» تقتضى منا أن نعرف أن كلمة

«تهلكة» على وزن تَفْعُلَه ولا نظير لها فى اللغة العربية إلا هذا اللفظ، لا يوجد على وزن تَفْعُلَه فى اللغة العربية سوى كلمة «تهْلُكة»، والتهلكة هى الهلاك، والهلاك هو خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدرى أين يذهب، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه. والحق يقول:

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فالهلاك ضد الحياة، وعلى الإنسان أن يعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة التى نراها، إنما حياة كل شىء بحساب معين فحياة الحيوان لها قانونها. وحياة النبات لها قانونها، وحياة الجماد لها قانونها، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعل «يهلك» أمام «يحيى» وهو سبحانه القائل:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

فلسنا نحن فقط الذين يهلكون، ولا الحيوانات، ولا النباتات وإنما كل شيء بما فيه الجماد، كأن الجماد يهلك مثلنا، ومادام يهلك فله حياة ولكن ليست مثل حياتنا، وإنما حياة بقانونه هو، فكل شيء مخلوق لمهمة يؤديها، فهذه هى حياته.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إى التهلكة» يكشف لنا بعضً من روآئع الأداء البيانى فى القرآن، ففى الجملة الواحدة تعطيك الشىء ومقابل الشيء وهذا أمر لا نجده فى أساليب البشر؛ فالحق فى هذه الآية يقول لنا: «أنفقوا فى سبيل الله» أى أنفقوا فى الجهاد، كما يقول بعدها: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» لماذا؟ لأن الإنفاق هو إخراج المال إلى الغير الذى يؤدى لك مهمة تفيد فى الإعداد لسبيل الله، كصناعة الأسلحة أو الإمدادت التموينية، أو تجهيز مبانٍ وحصون، هذه أوجه إنفاق المال.

والحق يقول: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة». وكلمة «ألقى» تفيد أن هناك شيئا عاليا وشيئا أسفل منه، فكأن الله يقول: لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وهل سيلقى الواحد منا نفسه إلى التهلكة، أو أن يلقى نفسه فى التهلكة بين عدوه؟ لا، إن اليد المغلولة عن الإنفاق فى سبيل الله هى التى تُلقى بصاحبها إلى التهلكة؛ لأنه إن امتنع عن ذلك اجترأ العدو عليه، ومادام العدو قد اجترأ على المؤمنين فسوف يفتنهم فى دينهم، وإذا فتنهم فى دينهم فقد هلكوا. إذن فالاستعداد للحرب أنفى للحرب، وعندما يراك العدو قوياً فهو يهابك ويتراجع عن قتالك.

والحق سبحانه ـ كما يريد منا فى تشريع القتال أن نقاتل ـ يأمرنا أن نزن أمر القتال وزناً دقيقاً بحسم، فلا تأخذنا الأريحية الاكذبة ولا الحمية الرعناء، فيكون المعنى: ولا تقبلوا على القتال إلا إن كان غالب الظن أنكم ستنصرون، فحزم الإقدام قد يطلب منك أن تقيس الأمور بدقة، فالشجاعة قد تقتضى منك أن تحجم وتمتنع عن القتال فى بعض الأحيان، لتنتصر من بعد ذلك ساعة يكمل الإعداد له.

والمعنى الأول يجعلك تنفق فى سبيل الله ولا تلقى بيدك إلى التهلكة بترك القتال. والمعنى الثانى أى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تقبلوا على القتا ل بلا داع أو بلا إعداد كاف. إن الحق يريد من المؤمنين أن يزنوا المسائل وزناً يجعلهم لا يتركون الجهاد فيهلكوا؛ لأن خصمهم سيجترىء عليهم، ولا يحببهم فى أن يلقوا بأيديهم إلى القتال لمجرد الرغبة فى القتال دون الاستعداد له. وهذا هو الحزم الإيمانى، إنها جملة واحدة أعطتنا عدة معان.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله: «احسنوا إن الله يحب المسحنين» الحق يقول: «وأحسنوا». والإحسان كما علمنا رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله ـ أى تطيع أوامره ـ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون بـ«فإنه يراك»، فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة فى المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل فى أرجاء المحل، هذه فعل البشر. لكن انظر إلى تسامى الإيمان، إنه يأمرك أنت أن ترى الله،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان.

فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد الإحسان فى العمل .

والإحسان فى كل شيء هو إتقانه إتقاناً بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يجب أن يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناس على هذا الأساس لامتازت كل الصناعات ، لكن إذا ساد الغش فأنت تغش غيرك ، وغيرك يغشك ، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى ، وعلينا إذن أن نحسن فى كل شيء : مثلا نحسن فى الإنفاق ، ولن نحسن فى الإنفاق إلا إذا أحسنا فى الكدح الذى يأتى بثمرة ما ننفق ؛ لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إنفاق إلا بمال ، فتخرج من عائد كدحك لتصرفه فى المناسب من الأمور .

ودائرة الإحسان لا تقتصر على القتال فقط ، فالأمر هنا عام ، ولا تعتقد أنه أمر فى زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة ، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضى أن يحسِّن الإنسان الحركة فى الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفى من يعول ، ثم يفيض لديه ما يحسن به .

إذا لم يتوافر المال ، فعليك أن تُحسن بجاهك وتشفع لغيرك ، والجاه قد قومه الإسلام أى جعل له قيمة ، فعلى صاحب الجاه أن يشفع بجاهه ليساعد أصحاب الحقوق فى الحصول على حقوقهم،وعلى الوجيه أيضا أن يأخذ الضعيف فى جواره ويحميه من عسف وظلم القوى ، وعليه بجاهه أن يقيم العدل فى البيئة التى يعيش فيها .

والوجاهة تعنى أن يكون للإنسان احترام أو وزن أو تقدير ، وهذه الأشياء لها مسبقات فى إحسان الشخص ، لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهة عند الناس . فالناس فى العادة لا يحترمون إلا من يكون له لون من الفضل عليهم ، فكأنه احترام مدفوع الثمن ، وليس احتراما مجانيًا . وقد يكون الإحسان بالعلم . أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف . أو بإكساب الخبرة للآخرين . أو بتفريج كربة عن مسلم .

إذن وجوه الإحسان فى الأشياء كثيرة، وكلهاتخدم قضية الإيمان. وعندما يرى الكافر المؤمنين وكل واحد منهم يحسن عمله فإن ذلك يغريه بالإيمان. وإذا سألنا: ما الذى زهد دنيانا المعاصرة فى ديننا؟ فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين. وهى حركة غير إسلامية فى غالبيتها. صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين، وهذا منتهى العدالة منهم لأنه ربما كان بعض المسلمين غير ملتزم بدينه، فلا يأخذ أحد الإسلام منه لمجرد إنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون ان هناك افعالا جرمها دينهم. ومادام هناك أفعال جرمها الدين وسن لها عقوبة فذلك دليل على أنها قد تقع، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق، هل تقول: إن المسلمين لصوص لا، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام هل جرمت السارق أو لم تجرمه؟ فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين. ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام، لأن الله قدر على البشر أن يقوموا بالأفعال حسنها وسيئها، ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيىء.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه، ولا يأخذونه من سلوك الناس، فقد يجوز أن تقع عين المراقب على مُخالف فى مسألة يحرمها الدين. فلا تأخذ الفعل الخاطىء على أنه الاسلام، وإنما خذه على أنه خارج على الإسلام.

وساعة يرانا العالم مسحنين فى كل شىء فنحن نعطيهم الأسوة التى كان عليها أجدادنا، وجعلت الإسلام يمتد ذلك المد الخرافى الأسطورى حتى وصل فى نصف قرن إلى آخر الدنيا فى الشرق، وإلى آخرها فى الغرب، وبعد ذلك ينحسر سياسيا عن الأرض، ولكن يظل كدين، ويبقى من الإسلام هذا النظام الذى يجذب له الناس. إن الإسلام له مناعة فى خميرته الذاتية إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته، وهو الذى يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول: لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية

المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أسوة حسنة . وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية ، وكل سفارة يعمل فيها جهاز يزيد على العشرين ، هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية فى السلوك والمعاملات فى عاصمة غير إسلامية ، حينئذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولمْ تفتنها زخارف المدنية : لا يشربون الخمر ، ولا يراقصون ، ولا يترددون على الأماكن السيئة السمعة ، ولا تتبرج نساؤهم ، بالله ألا يلفت النظر سلوكُ هؤلاء ؟

لكن ما يحدث - للأسف - هو أن أهل الغرب - على باطلهم - غلبوا بنى الإسلام - على حقهم - وأخذوهم إلى تحللهم ، وهذا الاتباع الأعمى يجعل الغربيين يقولون : لو كان فى الإسلام مناعة لحفظ أبناءه من الوقوع فيما وقعنا فيه .

إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام . إن الحق يقول: « إن الله يحب المحسنين » والحب كما نعرفه هو ميل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق هو تودد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق ، والحق سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه، فكما أن الله أحسن كل شىء خلقه « الذى أحسن كل شىء خلقه » يريد من عباده وقد تفضل عليهم بالعقل المفكر فيخطط ، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل يريد الحق منا أن يكون رائدنا فى كل عمل أن نحسنه ؛ حتى نكون متخلقين بأخلاق الله، فتشيع كلمة « الله » هذا اللفظ الكريم الذى يستقبل به الإنسان كل جميل فى أى صنعة ، فيقول : « الله » .

إذن تشيع كلمة « الله » نعمة فى الوجود تعليقاً على كل شىء حسن ، حتى الذى لا يؤمن بذلك الإله يقول أيضاً : « الله » ، كأن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تنطق بأن كل حسن يجب أن يُنسب إلى الله سواء كان الله هو الذى فعل مباشرة كالأسباب والكونيات والنواميس ، أو خلق الذى فعل الحسن ، فكل الأمور تؤول إلى الله .

ولو علم الذين لا يحسنون أعمالهم بماذا يحرمون الوجود لتحسروا على أنفسهم،

وليتهم يحرمون الوجود من كلمة «الله»، ولكنهم يجعلون مكان «الله» كلمة خبيثة فيشيعون القبح فى الوجود، وحين يشيع القبح فى الوجود يكون الإنسان فى عمومه هو الخاسر.

فقول الله: «إن الله يحب المحسنين» تشجيع لكل من يلى عملاً أن يحسنه ليكون على أخلاق الله. وبعد ذلك يقول الحق:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾

والنسق القرآنى نسق عجيب، فأنتم تذكرون أنه تكلم عن الصيام. ورمضان يأتى قبل اشهر الحج، فكان طبيعياً أن يتكلم عن الحج بعد أن تكلم عن رمضان وعن الأهلة وعن جعل الأهلة مواقيت للناس والحج كما أن هناك شيئاً أخر يستدعى أن يتكلم فى الحج وهو الكلام عن القتال فى الأشهر الحرم، وعن البيت الحرام فقد قال سبحانه: